القراؤون : تاريخهم ، مذهبهم وادبهم

الدكتور محمد عبد اللطيف عبد الكريم
مدرس العبرية واللغات السامية
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

يطلق الاسم (القراؤون ـ القرائيون) على واحدة من اشهر الطوائف اليهودية ، ظهرت بداياتها في أوائل القرن الثامن الميلادى ، حاملة اتجاها جديدا في الفكر الديني اليهودى ، ومطورة أياه على مر القرون لتقيم مذهبا خاصا في الفكر الفلسفي الديني اليهودى ، يتميز بشكل اساسي برفضه للتراث التلمودى الرباني .

ويطلق في العبرية على الطائفة (قاراثيم ، بني مقرا ، بعلي مقرا) أى (اهل التوراة) وفي التسمية اشارة الى ان افراد الطائفة انما يعتمدون التوراة فقط مصدراً مباشراً للتشريع الديني ويرفضون القانون الشفوى (The Oral Law) ومع هذا فقد قدم تفسير آخر للكلمة يستند الى المعنى الآخر للفعل (قارا) أي (دعا) ، وبذلك يطلق على افراد الطائفة اسم (الدعاة) (١) ، ويراد به انهم دعاة للمذهب الجديد .

---

(١) تنظر مادة (Karaites) في
Encyclopaedia Judaica, Jerusalem (1971-72): Encyclopedia of Religion and Ethics (Vol. VII)
وغني عن القول ان الاثر العربي واضح في اطلاق مصطلح (الدعاة) على افراد هذه الطائفة ، اذ هو تقليد لما جرت عليه العرب من استعمال للمصطلح .

آ – ظهور الطائفة وتطورها التاريخي

لم يطلق الاسم (القراؤون) على الطائفة الا في القرن التاسع ، أما ماكان يطلق على الطائفة قبل ذلك فهو اسم (العانانية) نسبة الى اسم مؤسسها عانان بن داود . وعانان هذا هو الابن الاكبر لداود اخى يعقوب رأس الجالوت ، وقد أقام في الشرق مدة قبل عودته الى بابل حيث تتلمذ على يد اشهر علماء عصره : يهوداي كاون .

ولما كان عانان الابن الاكبر سنا فقد هيأ أمره ليكون رأساً للجالوت ، وذلك بعده نفسه وليا للعهد ؛ الا أن الذى حدث عند وفاة رأس الجالوت هو تخلي علماء اليهود المتنفذين في الجالوت عن عانان واللجوء الى اخيه الاصغر حنانيا فاختير من قبلهم لرئاسة الجالوت ،ولا نشك في ان هؤلاء العلماء قد رأوا في عانان منذ بداية أمره نظراً خاصاً وعقلا متسماً بالكثير من الاستقلال مما حدا بهم الى تفضيل حنانيا عليه وتقديمه لهذا المنصب الشريف . وقد دفع ذلك عانان الى ان يرى أن في الامر اجحافا في حقه ، فرفض بشكل بات هذا القرار والاعتراف بأخيه رأسا للجالوت ، وقد اعقب هذا الرفض جملة من الاحداث التي ربما اتخذت طابعا سياسيا ، اذ ان اختيار حنانيا رأساً للجالوت قد ووفق عليه من قبل الخليفة ، ومعنى ذلك أن أى رفض لقرار كهذا يعد خروجا على طاعة الخليفة والولاء له ، وهذا ما حدث لعانان فقد ادخل السجن بهذه التهمة. وتشير الروايات التاريخية الى ان عانان كان معرضاً لعقوبة قاسية ، الا أنه أنقذ من ذلك بفضل نصيحة قدمها له فقيه كبير كان زميلاً له في السجن – رجح المؤرخون انه يكون ذلك الفقيه الامام ابا حنيفة النعمان الذى كان ملقى في السجن آنذاك – (٢) ، وقد كانت تلك النصيحة تتلخص في ان يعلن عانان

---

(٢) مهما كانت حقيقة هذه الرواية وقوتها ، فقد عدت – على الاقل – كبيرة الاحتمال استناداً الى ماهو معلوم من ان ابا حنيفة اعتقل وتوفي في السجن عام ٧٦٧ ، وان الفترة الزمنية التي كان عانان فيها منفصلا عن الربانيين تقع بين عام ٧٦٣ وهو تاريخ بناء بغداد وعام ٧٧٥ تاريخ وفاة الخليفة المنصور . انظر :

S.W. Baron, A Social and Religious History of the Jews, 2nd ed. (New York 1957), Vol. V p. 211.

نفسه رأسا لطائفة مستقلة لاتخضع لنفوذ الربانيين . وبالاضافة الى ذلك فان الروايات التاريخية تشير الى ضرورة تأكيد عانان على واحدة من أهم المسائل الخلافية بين فكره وفكر الربانيين ، وهي المسألة المتعلقة بالتقويم اليهودى ، اذ ان غالبية قادة اليهود الآخرين يعتمدون على الحسابات الفلكية في حساب الشهور وتحديد أوائلها ؛ أما عانان فانه اعلن تفضيله العودة الى الطريقة التوراتية التي تقوم على المراقبة الفعلية في اعلان القمر الجديد ؛ ولكون هذه الطريقة هي المتبعة من قبل المسلمين في التقويم الاسلامي ، فان وجهة نظر عانان هذه لقيت قبولا حسناً وتعاطفا من قبل الخليفة .

ومهما تكن صحة هذه الرواية ، الا انها تلقي ضوء على اهم المسائل التي بدأت بعد ذلك تفرق بين المجموعة القرائية والغالبية الربانية ، ابتداء من الكفاح السياسي من اجل النجاح حتى امتدت الى مجابهة تتصل بالسيطرة الشرعية على كل الشريعة اليهودية (٣) .

وعلى أية حال فان القرائين انفسهم يرجعون اصلهم الفكرى الى الصدوقيين الذين كان لزعيمهم (صادوق) فضل اكتشاف قسم من الشريعة الحقيقية(٤) ، بينما كان فضل اكتشاف الحقيقة كلها يعود الى عانان مؤسس الطائفة. وقدذهب بعض المؤرخين المحدثين هذا المذهب بينما ذهب البعض الاخر الى انهم لم يكونوا

---

(٣) انظر S.W. Baron, A Social., Vol. V. P. 211

(٤) ان اكتشاف وثائق البحر الميت (The Dead sea Scrolls) قوى رأي من يذهب الى وجود نوع من الا ثر الصدوقي على الطائفة على الرغم من وجودالفجوه الزمنية الواسعة بين تاريخ هذه الكتابات وبين ظهور طائفة القرائين ، والتي قد تمتد حوالي خمسة قرون ، وان لم يقم بعد دليل قاطع على صلة مباشرة بين الطائفتين ، وعلى اية حال فان مايجمع الطائفتين هو وقوفهما معاً في موقف الرفضامام كل ماسوى التوراة من التراث (Tradition) .

سوى مقلدين لحركات اخرى مشابهة حدثت في العام لم الاسلامي (٥) ، وفي هذا الرأى الاخير – كما نرى – مغالاة غير موضوعية ، واهمال للجانب الفلسفي والديني من فكر الحركة ان كان يرمي الى الحكم على القرائين بانهم لم يكونوا سوى مقلدين لحركات اخرى في عملية الخروج على الزعامة المركزية فقط .

عند دراستنا لاكثر هذه الروايات التاريخية التي تعرضها المصادر الربانية نرى أن هذه المصادر تحاول أمرين : اولاهما يرمي الى التقليل من قيمة الطائفة من خلال عزوها الى رجل واحد ، وثانيهما محاولتها تعليل ظهور عانان ، والطائفة من خلاله بسبب طموح عانان الشخصي وما رافق عملية اختيار اخيه الاصغر رأساً للجالوت من مس لكرامته وتقليل من شأنه . وفي ذلك كله ظلم كبير يراد الحاقه بالطائفة ، لانا نرى أن هناك اموراً عديدة عملت على ظهور الطائفة وتطورها ، لعل ابرزها سوء الوضع الاجتماعي والاقتصادى الذى عاشته الطبقات الفقيرة من اليهود ، اذ ادى تفرد الزعماء الربانيين بالامتيازات السياسية والاجتماعية الى ان تخلق طبقة ارستقراطية منهم ربما كانت بعيدة الى حد ما عن فقراء اليهود والضعفاء منهم اجتماعياً واقتصادياً ، فهؤلاء بدورهم كونوا الطبقة الضعيفة المستغلة من قبل الارستقراطية اليهودية . والذى لا نشك فيه هو ان وضعا كهذا أوجد الكثير من المعارضين الذين لم يشعروا بالرضا لا عن الربانيين ولا عن سلطة التلمود ،فاخذوا يتحينون الفرص لاعلان رفضهم لزعامة الربانيين . (٦)

ومن طبيعي الامور انه كلما كانت المعارضة بعيدة عن مركز السلطة والقوة فان فرصة انتشارها تكون مواتية بسبب الظرف الخاص بها . وقد كان

---

(٥) انظر

5. Pinsker, Liqqute Qadmoniyyot (Vienna 1860), pp. 15, 16.; M. Waxman, AHistory of Jewish Literature (New Jersey 1960), Vol. I p. 39

(٦) قارن M. Waxman, op. c t., p. 394 f.; Encyc. Jud. (Karaites) p. 763.

أكثر فقراء اليهود من أوائل الذين هجروا بابل وتوزعوا في الاقاليم المختلفة من الامبرطورية العربية الاسلامية ، وبخاصة في مشرقها ، حيث عاشوا بعيدين نسبيا ، أو حتى مستقلين احياناً عن السلطة اليهودية في بابل ، كما انهم رافقوا ظهور محاولات تمرد –أو خروج على الاقل – عديدة وبروز طوائف عقائدية جديدة في المشرق الاسلامي . (٧)

كما أننا لانشك في أن اليهود ، بمعايشتهم العرب المسلمين لفرة طويلة ، وباطلاعهم على انتاجهم الفكرى عن كثب ، قد تأثروا تأثيراً مباشراً وكبيراً بنشاطهم الفكري وبما شاهدوه من مناظراتهم الدينية والفلسفية ، ومناقشاتهم الطويلة ، وبخاصة ما يتعلق منها بصحة بعض الاحاديث أو عدم صحتها ، وبما رأوه من تشدد المسلمين في التأكد من حسن اسانيد الاحاديث وما يرافق ذلك من جرح وتعديل . اذ ان هذه الامور ، بطبيعة الحال ، دعت اليهود بدورهم الى النظر في نصوصهم المقدسة والى التساؤل بشكل جاد عن مدى صحة هذه النصوص وحقيقة قدسيتها ، (٨) والى اعادة الفكر في السلطة الربانيين المستندة الى التلمود .

ومما لاريب فيه ان تألف هذه الامور جميعا قد أدى بطوائف عديدة من المجتمع اليهودى الى عدم الرضا عن واقعها اليومي الفكرى والاجتماعي . والى جعل هذه الطوائف مهيأة لاستقبال (مذهب) جديد يقوم على السليم من هذه الاتجاهات الجديدة في المنحى اليهودى ويلبي رغبات هذه الطوائف ؛ فكان ان التفت هذه المجموعات حول عانان عند اعلانه تمرده على سلطة الربانيين الممثلين لليهودية التلمودية ، وخروجه على القانون الشفوى كما يقدمه التلمود وكما يفسره اساتذة المدارس اليهودية المعروفة . ولعل ظرف عانان الخاص بانتمائه

---

(٧) وقد حدث فعلا ان انضم الى الطائفة القرائية العديد من الطوائف اليهودية التي ظهرت في المشرق الاسلامي والتي ربما كانت متأثرة ببعض معتقدات المشرق كالعيسوية واليودغانية ؛ انظر Encyc. Jud. (karaites)

(٨) S.W. Baron, op. cit., p. 209.

الى عائلة ارستقراطية قيادية بين اليهود فيها رئاسة الجالوت ساعد في ان ينضم تحت لوائه بعض اولئك ممن كانوا يشعرون بضرورة الحاجة الى قيادة تنتمي الى الارستقراطية اليهودية .

وعلى الرغم من الجوانب الظاهرية لكل هذه الروايات ، فالذى نراه ونذهب اليه هو ان عانان كان يسعى لتأسيس مدرسة فقهية جديدة (٩) ، تتخذ من القياس المنطقي اصلا هاماً وركناً أساسياً تستند اليه في تفسير الكتاب وفي التشريع بصورة عامة . ولانشك ايضا في ان عانان كان متأثرا بشكل مباشر بالامام ابي حنيفة في استعمال القياس ، بل ربما بالغ احيانا في استعما ل القياس. كما أنه اخذ بمبدأ تناسخ الارواح من بعض فرق المشرق ، ويروى انه وضع كتابا فيه وفي الدفاع عنه . (١٠) وان كان بعض المؤرخين يذهب الى انه لم يقم هناك دليل على ان عانان او أياً من اتباعه رأوا في هذا المعتقد امراً يختلف بشكل كبير عن الدائرة العامة للايمان اليهودى بحيث يكفي لخلق مادة مذهبية جادة . « كما ان هذه المشكلة لم تأخذ في الحياة اليهودية الاهمية الممنوحة لها — على سبيل المثال — من قبل بعض الاجنحة المتطرفة في الشيعة » . (١١)

أشرنا سابقا الى ان افراد الطائفة يعتمدون التوراة فقط ويرفضون القانون الشفوى وهم بذلك يستندون الى الاساس الذى أوجده عانان في العودة الى التوراة فقط مصدراً وحيداً ومباشرا للتشريع الديني وعدم الاعتماد على رأى آخر ، فقد نقل عنه قوله المشهور : « ابحث جيدا في التوراة ولا تعتمد على رأيي » ، قاصدا بذلك أن يكون الكتاب المقدس المصدر الوحيد للقانون وان يعتمد الباحث في التوراة على فهمه الخاص للنص . الا أن الذى حدث بعد ذلك ، وبسبب اعتماد الكثيرين على آرائهم الخاصة في فهم الكتاب المقدس وتفسير نصوصه . ان كثرت

---

(٩) انظر S.W. Baron, op. cit., p. 211

(١٠) ولكن هذا لا يمنع من ان يعارض بعض مفكري القرائين بعد ذلك هذا المعتقد كما فعل يعقوب القرقشاني حين وضع فصلا كاملا من كتابه (الانوار والمرقب) لمناظرات وحجج ضد هذا المعتقد .

(١١) قارن S.W. Baron, op. cit., p. 211

الانقسامات التي اصابت الحركة بعد وفاة مؤسسها ، وتشكلت مجموعات وطوائف مستقلة من داخل الطائفة القرائية نفسها ، حتى بات الانشقاق والاختلاف في المسائل الدينية امراً سائداً بين ابناء الطائفة ، الى الدرجة التي يروى فيها القرقشاني من اهل القرن العاشر أنه أصبح من المستحيل ايجاد اثنين من القرائين يتفقان في الرأى في كل المسائل الدينية .

ولم يبق من اتباع عانان الا قليل اطلقوا على انفسهم اسم (العنانانية) ، ويبدو ان رئاسة العانانية عملياً لم تكن بيد واحد من ذرية عانان ، وان كان شاؤول بن عانان وابنه قد اعطيا لقبا شريفاً (هناسي — الامير) من قبل معاصريهما . اذ يظهر ان الطائفة لم تجتمع على الاعتراف بزعيم منفرد لها ، وبسبب ذلك فانه لم يمض سوى وقت قصير حتى ظهرت عدة طوائف من داخلها تعارض العانانية ؛ فقد ظهر اسماعيل العكبرى في النصف الاول من القرن التاسع ليؤسس طائفة العكبرية (١٢) ، وتلاه ميشويه العكبرى ليؤسس في نفس المدينة طائفة أخرى في النصف الثاني من القرن التاسع (١٣) ، كما ظهر في الوقت نفسه موسى الظفراني المعروف بأبي عمران التفليسي (١٤) ليؤسس طائفة قرائية اخرى . كما ظهرت طائفة أخرى في الرملة أوجدها مالك الرملي . و كان نتيجة ذلك انه لم يأت القرن العاشر حتى كانت الطائفة القرائية تضم عدة مجموعات من

---

(١٢) لم يصلنا شيء من كتابات اسماعيل العكبرى او غيره من مؤسسي الطوائف الا خرى واكثر ماوردنا من اخبار انما جاء مما ذكره القرقشاني في الا نوار والمراقب ؛ فمن اخباره انه رفض الا ختلا فات الماسورية في كلمات معينة في العهد القديم (قري وكتيب) ؛ وهي مفردات تقرأ على خلاف ماوردت مكتوبة في العهد القديم .

(١٣) وذكر انه خالف الربانيين وسائر الطوائف القرائية الا خرى حينما اعتقد بان اليوم ، بالمفهوم الديني ، يبدأ بالصباح وينتهي بالليلة التالية ، بينما يذهب الا خرون الى ان اليوم يبدأ بالمساء السابق ؛ انظر Encyc. Jud. p. 766

(١٤) يذكر القرقشاني ان التفليسي كان تلميذا لا سماعيل العكبرى ومؤلفاً لرسالة في اجازة اكل اللحم بينما ذهبت عدة طوائف وبضمنهم القراؤون الا وائل الى تحريم اكل اللحم مادامت صهيون في خراب واليهود في الجلاء .

الطوائف ، المجتمعة في نقمتها على الربانيين والمختلفة فيما بينهافي آرائها الدينية · ويعزو القرقشاني هذه الاختلافات في وجهات نظر القرائين في المسائل الدينية الى ان القرائين انما يستعملون السبب والتعليل للوصول الى الرأي ، أي أنهم يعملون العقل والمنطق في المسائل ، وهذا بدوره قد يقود الى نتائج مختلفة عند الاشخاص المختلفين ، بخلاف الربانيين الذين يزعمون ان قوانينهم وتعاليمهم انما وصلتهم عبر الانبياء ، ولذلك فان الاختلافات في الرأي عند الربانيين غير مبررة ، بل على العكس من ذلك ان هذه الاختلافات تنقض اعتقادهم المزعوم ·

ونشاط الدعوة القرائية كان بطيئا بشكل عام ، وكانت الحركة تشق طريقها نحو الثبات في مواجهة الربانيين بصعوبة ، وذلك لتمتع الربانيين بالنفوذ السياسي والاجتماعي ولتمكنهم بالموروث من الثقافة الدينية والفلسفية من الرد على القرائين ، ولم يدر في خلد الربانيين ان هذه الحركة الوليدة التي نشأت في بابل سوف تشتد وتقوى لتمتد مزدهرة في أكثر المناطق الخاضعة للنفوذ العربي الاسلامي ، بحيث صار لها مراكز علمية وروحية مهمة في فارس ثم في مصر وشمال افريقيا وفلسطين حيث كانت القدس احداهم المراكز الروحية للقرائية ·

ولم يصبر الربانيون على ظهور هذه الحركة الجديدة التي تدعو بالنتيجة الى الحد من نفوذهم الاقتصادي والاجتماعي ، فانبروا يهاجمون الحركة القرائية ، مفندين حججها ، داعين الى نبذ آرائها · ولعل من اوائل الربانيين البارزين الذين دخلوا في هذه المعركة سعديا كاون ، (١٥) فقد ألف كتابا بالعربية هاجم فيه عانان ودعوته ، ورد فيه على كتاب آخر وضع من الجانب القرائي هو كتاب (الفضائح) المنسوب لابن سخاويه في مهاجمة الربانيين ، ثم توالت انتاجات الفريقين في هذا الباب · (١٦)

---

(١٥) انظر

A. Hrakavy Anti Karaite Writings of Saadiah Jewish Quarterly Review. Vol. xlll (1901). pp. 662 ffi.

(١٦) لمراجعة ذلك بالتفصيل أنظر :

S. Poznanski. The Karaite Literary Opponents of Saadiah Gaon (London 1908).

اما موقف السلطة العربية من هذا النزاع فقد كان مشرفا حفظه التاريخ ، اذ انهم آمنوا بحرية الفكر وبالمساواة بين كل هذه الطوائف . فقد وردتنا نصوص من علماء القرائين يثنون فيها على السلطة العربية ويمدحون فيها موقفهم من هذا النزاع الكبير بينهم وبين الربانيين ، اذ ان اليهود لم يتمتعوا من قبل بمثل هذا العدل الذى عاملهم به العرب ، فهذا دانيال القومسي ، من رؤساء الحركة ومفكريها في القرن التاسع ، يبارك موقف السلطة العربية الاسلامية التي مدت يد العون للقرائين وهم المستضعفون من قبل الربانيين ، وكفت اذى الربانيين وعملت على التخفيف من ضغطهم على القرائين . ولا أدل على موقف السلطة العربية السمح هذا من دعوة القومسي اخوته في الايمان بأن لا يخشوا الربانيين مادامت الدولة العربية قائمة ،فهو يقول مخاطبا اخوته القرائين : « سوف لن يكون لكم عذر امام الرب ان لم ترجعوا اليوم الى شريعته ... لانه منذ أيام مملكة اليونان والرومان امسك الربانيون مكاتب الامارة والقضاء ، اما اولئك الذين طلبوا الحق فانهم لم يتمكنوا من فتح فمهم ... خوفا من الربانيين الذين كانوا يحكمون عليهم ، ولكن مع وصول مملكة اسماعيل (العرب) ، تحسنت الاحوال ، لان الاسماعيليين ساعدوا القرائين دائماً في تتبع الايمان الحق في شريعة موسى ، ونحن يجب ان نحمدهم ونباركهم على ذلك ، ... فلم بعد هذا تخافون الربانيين ؟ » (١٧)

ب – المذهب القرائي

سبق ان اشرنا الى ان الكتاب المقدس يعد المصدر الوحيد والمباشر لدى القرائين للتشريع ووضع القانون،وان كل التعاليم الدينية يجب أن تؤخذ مباشرة من الكتاب المقدس ؛ ويصار الى ذلك بالاستناد الى التفسير الحرفي للنص التوراتي

---

(١٧)

L. Nemoy, Karaite Anthology. p. 38.; Baron, op. c t., Vol. lll p. 102.; J. Mann, A Tract by an early Karaite Settler in Jerusalem, **Jewish Quarterly Review.** (N.S.) Xll (1921–22) p. 257 f.; **idem.**, The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs (Oxford, 2nd ed. 1969), Vol. p. 61 f.

والاستعمال المعروف للمفردات ومضامين الجمل . أما التراث (Tradition) فهو مقبول لدى القرائين ولكن بشرط ان لا تكون اقامته موقفه للتعاليم الدينية الواردة في التوراة أو سببا في عدم اقامتها بأى شكل من الاشكال . وبذلك فان التراث مقبول لغرض توضيح النصوص التوراتية وازالة الغموض عنها ، ومعنى ذلك ان التقليد قدحصرت مهمته وحددت ؛أما ما عدا ذلك فكل باحث يجب ان ينظر بنفسه في الكتاب المقدس ويدرسه وفقا للمبدأ الذى ارساه عانان « ابحث جيدا في التوراة ولا تعتمد على رأيي » . وبذلك نستطيع ان نوجز اهم ما يميز المذهب القرائي في امرين هما :

١ – الموقف الصارم من التراث .

٢ – حرية الفهم الشخصي للتوراة وعدم وجود قيود على ذلك .

وخلال الفترة الزمنية المبكرة من تاريخ الحركة القرائية ، أى في القرنين الثامن والتاسع للميلاد كان مبدأ البحث في التوراة وعدم الاعتماد على آراء الاخرين في فهم نصوصها يقود الى غلبة الاتجاهات الفردية في تناول القضايا الدينية مما ادى الى خلق الآراء المتباينة والتي ادت بدورها الى الانقسامات والى ظهور حركات عديدة من داخل الطائفة نفسها حتى بات من الصعب توحيدها في تلك المرحلة . وقد حدث ذلك بصورة خاصة في عهد بنيامين بن موسى النهاوندى (من أهل منتصف القرن التاسع) الذى كان من مؤسسي الحركة وأول كاتب قرائي استعمل المصطلح (قارائيم ، بني مقرا) ، اذ انه جعل من الدراسة الحرة والشخصية للكتاب المقدس مبدأ اساسيا في المذهب القرائي حتى بات من الممكن ان يقدم المذهب القرائي عدة تفسيرات مختلفة لنص توراتي واحد ، اذ انه ليس من الضرورى ان يتفق الاخ مع اخيه ولا الولد مع ابيه ولا تلميذ مع استاذه . (١٨)

(١٨) Encyc. Jud. (Karaites) p. 767

الا انه في الفترات التالية وربما ابتداء من القرن الثاني عشر اخذت الآراء القرائية تسير نحو التنظيم والتوحيد ، وهذا التحول الجديد بدأ ظاهرا في وقت يهودا هداسي (١٩) ، وأخذ شكله النهائي في وقت الياهو باشيازي (نهاية القرن الخامس عشر). (٢٠)

وقد استند القراؤون عموما الى مبادئ معلومة اتخذوها قواعد ثابتة لوضع التشريع :

١ — المعنى الحرفي للنص التوراتي (كتاب) .

٢ — الاجماع ، اي اتفاق الطائفة (عيدا) .

٣ — القياس ، أى الوصول الى النتائج المستخرجة من الكتاب المقدس بواسطة القياس المنطقي (هقيش) .

٤ — المعرفة المعتمدة على التعليل والذكاء الانساني (حخمة هدعت) .

الا ان العلماء القرائين اختلفوا في قبول القاعدة الاخيرة اذ لم تكن مقبولة دائما من جميع القرائين .

والاساس الفلسفي للعقيدة القرائية وضع في كتاب (شجرة الحياة) من عمل هارون بن الياهو ، الذي يعتبره القراؤون مرجعا رسميا ، اما الياهو باشيازي وتلميذه كالب افندوبولو فقد صاغا فلسفة القرائين في عشرة اسس هي : (٢١)

١ — ان الله خلق كل العالم المادى والروحي في وقت واحد ، من لاشيء .

٢ — انه خالق ولكنه غير مخلوق .

---

(١٩) اشهر كتاب عصره وواحد من ابرز كتاب القرائين ، عاش في منتصف القرن الثاني عشر في القسطنطينية . تثقف ثقافة واسعة واطلع عا آداب القرائين والربانيين ودرس التلمود وشهر باكثر علوم زمانه . انظر ترجمته في M.Waxman, op. c t., Vol. I pp. 411 ff.

(٢٠) Encyc. Jud. (Karaites) p. 777

(٢١) Encyc. Jud. p. 777

٣ ـ انه لا هيأة له ، واحد في كل شيء ولايقارن بشيء ، منفـــرد وواحد تماما .

٤ ـ انه ارسل موسى .

٥ ـ انه ارسل التوراة عن طريق موسى ، والتي تحوي الحقيقة كاملة وهي لا يمكن أن تلحق أو تبدل بأي قانون آخر ، وبصورة خاصة بواسطة القانون الشفوى الذى يضعه الربانيون في مرتبة خاصة .

٦ ـ ان كل مؤمن يجب ان يتعلم التوراة بلغتها الاصلية وبمعانيهـــا الصحيحة .

٧ ـ ان الله اوحى الى الانبياء الآخرين ايضا ، وان كانت منحتهم النبوية دون تلك التي اعطيت لموسى .

٨ ـ ان الله سوف يبعث الموتى في يوم الحساب .

٩ ـ ان الله سوف يكافيء كل انسان حسب نهجه في حياته وحسب عمله.

١٠ ـ ان الله لا يحتقر أولئك الذين يعيشون في الشتات وعلى العكس فهو يريد أن يطهرهم من خلال آلامهم اذ انهم بذلك سوف يطلبون كل يوم نصرته وانقاذه من خلال مسيح يأتي من ذرية داود . (٢٢)

ومن دراستنا لهذه الاسس نرى الاثر المعتزلي واضحا في اصول عقيدتهم فهم في الاصول الثلاثة الاولى يلتقون مع المعتزلة في التأكيد على وحدانية الله وعلى انه قديم وانه خالق جميع المخلوقات وما دونه محدث كما انه لا شكل له فلايشبه بخلقه ، أى أنهم بعبارة اخرى ، نفوا عن الله تعالى جميع صفات المخلوقات . (٢٣)

---

(٢٢) في بعض معتقدات القرائين المبكرة لا يرد ذكر لمفهوم المسيح .

(٢٣) انظر آراء المعتزلة في مسألة التوحيد : زهدي جار الله ، المعتزلة ط بيروت ١٩٧٤ ص٦٠.

وقد شغلت مسألة التشبيه مجالا كبيرا من مناظرات القرائين مع الربانيين اذ ان ميل الربانيين الى التجسيم صار هدفا لهجمات القرائين المتواصلة ، وتأكيداتهم المستمرة على ان الربانيين قد اساؤوا فهم العهد القديم (٢٤) حين اخذوا بعض النصوص التي يفهم منها التجسيم على الظاهر (٢٥) ، وبسبب اهمية هذه المسألة عند القرائين نرى يعقوب القرقشاني يهاجم الربانيين على ذلك في قوله : « فانهم (يريد الربانيين) اجازوا عليه التشبيه والتجسيم ووصفوه باقبح الصفات وانه ذو اعضاء ومساحة وحدوا مساحة عضو عضو منه وكم يكون ذلك من فرسخ وذلك في كتابهم الذي يسمونه (شيعور قوما) معنى ذلك مقدار المقامة يريد قامة البارى جل وتعالى ، هذا غير ما يذكرونه عنه في التلمود وغيره من كتبهم من الاخبار والافعال ... التي لا تليق ببعض المخلوقين فضلا عن الخالق » . (٢٦) وهم في هذا متأثرون بعقيدة المعتزلة الذين « اتفقوا على نفي التشبيه عنه من كل وجه جهة ومكاناً وصورة وجسما وتحيزا وانتقالا وزوالا وتغيرا وتأثرا »(٢٧)

اما الاصول الاخيرة من هذه الاسس فان فيها تأكيدا على مفهوم العدالة الالهية عند القرائين . فالله عادل حتى عند انزاله العقوبات على (شعبه) ، بل وواجب انزالها تنفيذا للعدل الالهي . وايمانا من القرائين بهذه العدالة وجهوا بعض النصوص التوراتية التي قد يبدو ظاهرها مناقضاً لهذا المفهوم ؛ (٢٨)

---

(٢٤) انظر :
Zvi Ankori, Karaites in Byzantium (New York, 1959) p. 240; Alexander Altmann, Moses Narbonis Epistle on Shiur Qoma, in Jewish Medieval and Renaissance Studies, (ed. A. Altmann, Harvard Univ press, 1967) 227 ff.

(٢٥) ذهب بنيامين النهاوندي – سعياً منه الى ابعاد صفة التجسيم عن الرب – الى ان خالق العالم وبانيه ودليله ملا ك خلقه الله ليمثل اردته ، وكان ذلك الملا ك هو الذي عمل المعجزات ، والى ذلك الملا ك تشير القطع المجسمة في العهد القديم . انظر Encyc. Jud. p. 767

(٢٦) كتاب الا نوار والمراقب ج ١ ص ١٧٢ .

(٢٧) الشهرستاني ، كتاب الملل والنحل (ط قاهرة) ج ١ ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٢٨) وكان هذا مذهبهم في تفسير الا حداث التاريخية اذ رأوا كونهم في الشتات تنفيذاً للعدالة الا لهية ، اذ ان اليهود استحقوا هذه العقوبة لا نهم تركوا الرب وعصوه .

فالرب مثلا ، لا يأخذ الابناء بخطيئة الآباء ، كما ان الرب لا يحتسب للابنـاء طاعة آبائهم ، وبالتالي فانهم يرفضون اخذ قو له في (سفر المراثي ٥ : ٧) على ان العقوبة حلت عليهم بسبب خطايا الاباء ، كما يوحي ظاهر القول ، وانما فسروه على ان الرب عاقب الاباء بتر كهم في الصحراء اربعين سنة حتي يهلكوا.(٢٩)

ورأى القرائين في هذه المسألة يتفق بطبيعة الحال مع المعتزلة في ذهابهـم الى (القول بالقدر) حين يرون ان « العبد قادر خالق لافعاله ، خيرها وشرهـا .. والرب تعالى منزه ان يضاف اليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية لانه لو خلق الظلم كان ظالما كما لو خلق العدل كان عادلا » (٣٠) ، أي أن الانسان هو الفاعل لفعله خيرا كان ام شرا ، طاعة كان ام معصية .

حـ — الأدب القرائـي

بدأ أدب القرائين بالظهور مع بداية دعوتهم الى الفكر الجديد الذى بشرت به الحركة الوليدة ، واستمر انتاج القرائين العلمي لقرون طويلة حتى افول نجم القرائين حوالي القرن الخامس عشر . الا ان اهم مرحلة من مراحل انتاجهـم الفكري هي الاربعة قرون الاولى الممتدة بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر(٣١)، والذي يلاحظ على أدب القرائين في القرنين الثامن والتاسع ان اغلبه كتب اما بالآرامية الربانية أو بالعبرية في اثنين من مراكز نشاطهم الفكرى المهمـة : بابل وفلسطين . أما مواضيعه فان اكثره يضم كتب الوصايا والاوامر الدينيـة الى جانب الشروح التي وضعها علماؤهم على اسفار الكتاب المقدس المختلفة :

---

(٢٩) انظر شرح سفر المراثي لسالمون بن يروحام ص ١٧٧ ، وانظر ايضاً الانوار والمراقب ٢ : ٢٣٧ ، وقارن ايضا اراء الصدومتيين في هذه المسألة في
The Zadokite Documents (ed. C. Rabin, 1954) p. 43

(٣٠) الشهرستاني ، كتاب الملل والنحل ١ : ٥٨ ، ٦٢ .

(٣١) يجعل بعض مؤرخي الا دب العبري هذه المراحل ثلا ثاً . انظر تفصيل ذلك في
A.Waxman. op. cit., Vol. x pp. 400 ff.

و لللا طلا ع على ابرز كتاب القرائين وعلى نماذج من نصوصهم انظر :
S. Pinsker, op. cit; L. Nemoy, Karaite Anthology; M. ;Steinschneider, Jewish Literature. sect. " Karaite Literature".

ولا شك ان هذه المرحلة تعد مهمة لان علماء القرائين كانوا يسعون في مؤلفاتهم تلك الى وضع اسس واضحة ومبادئ يؤمل ان تكون ثابتة للتشريع الديني الذى احناجت اليه الطائفة في تلك الفترة .

اما اشهر كتابهم في هذين القرنين فهو رأس الطائفة ومؤسسها عانان الذي قيل أنه وضع كتابا في الوصايا والقوانين مازال قسم كبير منه موجودا الى جانب النصوص الكثيرة التي اقتبست من قبل الكتاب المتأخرين وحفظت في تصانيفهم . وهو مكتوب بالاسلوب التلمودى أي بالآرامية الممزوجة بقليل من العبرية . وقد حاول المؤلف فيه ان يبتعد عن التفسيرات التي يقدمها التامود لكثير من نصوص العهد القديم قدر ما أمكن ذلك ، ليصل بعد ذلك الى نتائج مختلفة عن تلك التي وصل اليها الربانيون . وقد استعان فيه عانان بالقياس كثيرا ، وربما كان عانان مبالغا في فهمه لحرفية النص التوراتي من جهة ولاستعماله القياس من جهة ثانية . كما يعزو بعض القرائين الى عانان وضعه شرحا على الاسفار الخمسة الاولى من الكتاب المقدس .

بعد عانان ، وفي حوالي منتصف القرن التاسع ظهر بنيامين بن موسى النهاوندى الذى يعد من قبل القرائين والربانيين على حد سواء من أهم مؤسسي الطائفة القرائية . وقد عمل بنيامين جاهدا لوضع اسس للمذهب القرائي ، كما أنه كان أول فيلسوف بين القرائين ؛ وقد أخذ من المعتزلة الكثير وبخاصة ما يتعلق بنفي التجسيم والتشبيه . والف بنيامين عدة كتب منها كتاب في الوصايا بالعبرية الى جانب عدة شروح وضعها على اسفار مختلفة من العهد القديم وضعها باللغة العربية منها شروح على المجلات الخمسة .

ويختلف بنيامين عن عانان بأن الاول أخذ بحرية من الربانيين وان لم يعدها ملزمة للقرائين ، بل انه نصح زملاءه بالاستئناس بوجهات نظر الربانيين في الاحوال التي لا يجدون فيها اجوبة واضحة في العهد القديم ؛ كما انه دعا الى اعتماد القسمين الآخرين من اقسام العهد القديم (الانبياء والمكتوبات) الى جانب القسم الاول (التوراة) عند وضع التشريعات .

ومن ابرز اعلام هذه الفترة أيضا دانيال بن موسى القومسي الذي عاش في نهاية القرن التاسع ، وقد وضع ايضا كتابا في الوصايا بالعبرية ، وشرحاً على التوراة .

اما الفترة التالية أي خلال القرنين العاشر والحادى عشر ، والتي يصطلح عليها بالفترة العربية (٣٢) ، فتعد بحق الفترة الذهبية ليس بالنسبة للادب القرائي حسب ، وانما بالنسبة للادب والانتاج الفكري العبري في العصور الوسطى عموما . ففي هذه الفترة انتج القراؤون احسن ما كتبوا واكثره ؛ وقد استعملوا اللغة العربية في كتاباتهم اسوة بالربانيين في وضع انتاجهم في تلك الفترة (٣٣)، ثم ترجم الكثير مما كتبوه بالعربية الى العبرية .

وقد تعددت أبواب الكتابة في هذه الفترة واختلفت مواضيعها ، ولم يكد يبق باب من أبواب المعرفة آنذاك لم يطرقوه ولم يضعوا فيه كتابا أو رسائل ؛ ولعل شروحهم على الكتاب المقدس وتفسيراتهم لاسفاره وكتبهم في النحو واللغة والفلسفة الى جانب كتبهم في محاجة الربانيين والرد على دعواهم اهم ما يميز انتاج هذه الفترة .

ولعل اشهر كتاب هذه الفترة أبو يوسف يعقوب القرقشاني الذي عاش في النصف الاول من القرن العاشر ، وقد صنف كتابه المشهور « الانوار والمراقب » بالعربية سنة ٩٣٧ ، تناول فيه شتى المواضيع التاريخية والدينية والفلسفية ، الى جانب قسم آخر يسبقه ضمنه شرحاً للكتاب المقدس . فقد خصص في الجانب التاريخي قسماً كبيراً منه عرض فيه للطوائف الدينية ، مؤرخاً لها وذاكراً أهم مذاهبها ؛ كما حفظ لنا الكثير من تاريخ الحركة القرائية ومؤسسيها كعانان وبنيامين والنهاوندي وفلسفته .

---

(٣٢) M.Waxm8n, op. cit., p. 402

(٣٣) للتعرف على طبيعة الا دب في هذه الفترة وخصائص لغته العربية ينظر بحثنا « من خصائص عربية اليهود في القرن العاشر » في مجلة كلية الآداب – جامعة بغداد (شباط ١٩٧٩) ص ٩ – ١٤ .

ثم جاء آخرون من أهل القرن العاشر الميلادى كابن سخاويه وسالمون بن يروحام وسهل بن مصليح ويافث بن علي اللاوي البصري وداود بن ابراهيم الفاسي ، فكانوا من المصنفين الذين وضعوا مؤلفاتهم في شروح على الكتاب المقدس وفي النحو واللغة والمعاجم ، كما وضعوا كتبا في مهاجمة الربانيين والدفاع عن الطائفة ومعتقداتها .

ومن ابرز اهل القرن الحادي عشر يوسف بن ابراهيم البصير (ت ١٠٤٠) الذي كان ابرز فلاسفة القرن في ذلك العصر ؛ وقد وضع ثلاثة مؤلفات ذات طابع فلسفي . ضم الاول ثلاثة عشر سؤالا وجهها لليهود ولغيرهم ؛ اما الاثنان الآخران فيتعلقان باصول الدين والفلسفة الدينية ؛ ويلاحظ انه تأثر كثيرا بالمعتزلة وعلم الكلام في عرضه ومناقشاته . ثم جاء يشوع بن يهودا المعروف بابي الفرج فرقان بن اسد من اهل النصف الثاني من القرن الحادي عشر والذي كان فيلسوفا كسابقه ومفسرا للكتاب المقدس ؛ وقد وضع عدة مؤلفات في الفلسفة والتشريع ، كما قام بترجمة التوراة الى العربية .

وقد كان يشوع هذا آخر العلماء القرائين في فلسطين اذ انه عند نهاية القرن الحادي عشر انحدر الانتاج الادبي والعلمي للقرائين في فلسطين انحداراً حادا ، وانتهى نهاية محزنة ، فانتقل النشاط الفكري للقرائين مع انتقالهم الى مواطنهم الجديدة في الدولة البيزنطية ، وبذلك اصبحت القسطنطينية المركز الادبي للطائفة القرائية بدلا من بابل والقدس . وقد حدث هذا كنتيجة مباشرة للحملة الصليبية الاولى (١٠٩٩) ، اذ اخذ الغزاة الصليبيون عند احتلالهم القدس افراد الطائفة القرائية وساقوهم جنبا الى جنب مع الربانيين الى احدى البيع واحرقوهم فيها احياء (٣٤) ؛ فكانت تلك الحادثة ايذانا بانتهاء الوجود القرائي الفعلي في القدس .

أما ابرز الاعلام الادبية في القرن الثاني عشر في المركز الفكري الجديد فهو طوبيا بن موسى الذي عاش في القسطنطينية في أوائل القرن الثاني عشر ، وقد

---

(٣٤) Encyc. Jud., (Karaite) p. 769

درس في أول حياته على يد يشوع بن يهودا في القدس ، كما عرف بترجمته كتب سابقيه ، اضافة الى انه وضع تفسيراً بالعبرية للاسفار الخمسة الاول من الكتاب المقدس باسم (زوت هتورا) أي (هذه التوراة).

ثم ظهر يهودا هداسي الذي يعد احد مبرزي كتاب القرائية عموماً ، وقد عاش في منتصف القرن الثاني عشر في القسطنطينية ، وكان رجلا موسوعياً اطلع على تراث سابقيه من القرائين والربانيين ودرس الفلسفة واغلب علوم عصره . وخلف لنا كتابا موسوعيا ضمنه اغلب المعارف كالتشريع والتفسير والنحو والفلسفة والفلك وغيرها ؛ كما ان له اهمية خاصة بسبب احتوائه على الكثير من الاقتباسات من النصوص القرائية لكتاب سبقوه .

ولعل هذه الموسوعة كانت خاتمة لعصر ذهبي من الانتاج الفكري اليهودي، شهد ازدهاراً أبان قيام الدولة العربية فاستظل بظل نشاطها الفكري العربي لقرون عديدة ، ثم هوى وانتهى بانتهاء الدولة العربية .

مصادر البحث

جار الله ، زهدي : المعتزلة ط بيروت ١٩٧٤ .

الشهرستاني : كتاب الملل والنحل ط قاهرة ٣ اجزاء .

القرقشاني ، يعقوب : الانوار والمراقب ط نيويورك ٥ اجزاء .

Altmann, A., "Moses Narboni's Epistle on "Shiur Qoma" Jewish Medieval and Renaissance Studies. (Harvard, 1976) pp. 225–288.

Ankori, Z.; karaites in Byzantium. New York, 1959.

Baron, S.W.; Asocial and Religious History of the Jews, 2nd ed. New York 1952–69 (14 vols).

Encyclop. Judaica, (Jerusalem, 1971–72).

Encyclop. of Religion and Ethics . (vol. Vll)

Harkavy,A.;Fragments of Anti–Karaite Writings of Saadiah in the Imperial Public Library of St. Petersburg', Jewish Quarterly Rewiew, Xlll (1901), pp. 655–668.

Mann,J.; Texts and Studies in Jewish History and Literature, Philadelphia, 1935.

The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs, 2nd ed., Oxford, 1969.

Nemoy, L.; Karaite Anthology, 2nd ed., London , 1963.

Pinsker, L.S.; Liqqudi Qadmonyyoth, Vienna, 1860.

Poznanski, S.; "The Karaite Literary Opponents of Saadiah Gaon in the tenth Century", Jewish Quarterly Review, xvlll (1906), pp. 209–250.

Rabin, C. (ed.); The Zadokite Documents, London, 1954.

Steinschneider, M.; "An Introduction to the Arabic Literature of the Jews" , Jewish Quarterly Review, (1900) xlll